مساهمة نيتشه في اجتثاث الميتافيزيقا من الفلسفة

Nietzsche's contribution to the uprooting of metaphysics from philosophy

طاهري صدام

جامعة مولود معمري تيزي وزو

(الجزائر)

philosophysaddam@gmail.com

تاريخ الاستلام:2022/01/22 تاريخ القبول:2022/04/17 تاريخ النشر :2022/05/13

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى إبراز مساهمة نيتشه في تفكيك العقول التي أساءت استخدام معنى الوجود والحياة، متمثلة في العقل اللاهوتي الديني والعقل الفلسفي المثالي، والتي كانت السبب في فقدان العلاقة المتبادلة بين الإنسان والحياة فبات الإنسان يعيش تحت وطأة عالم آخر مبتعدا عن عالمه الحقيقي،حيث سعى إلى التخلص من كل ما هو فوقي مفارق إلى ما هو تحتي ملموس ومما هو ميتافيزيقي خارج عن الحياة إلى ما هو حي بالحياة، ولذلك أراد أن يعيد الأمور إلى نصابها عندما كان عليه التفكير من قبل، أي تفكير في الأرض وليس في السماء تفكير في الحياة والوجود لا أفكار وقيم متعالية أو بالأحرى تفكير في الجسد لا في الروح والإقبال على الحياة والمساهمة فيها بدل العيش كضيوف.

الكلمات المفتاحية:الجنيالوجيا؛الفلسفة؛ اللاهوت؛ الميتافيزيقا؛ الوجود.

Abstract :

This article seeks to highlight Nietzsche's contribution to dismantling the minds that misused the meaning of existence and life, represented by the religious theological mind and the ideal philosophical mind, which were the reason for the loss of the mutual relationship between man and life, so man began to live under the weight of another world away from his real world, where he sought To get rid of everything that is above and separates from what is below concrete and what is metaphysical outside of life to what is alive with life, and therefore he wanted to restore things to their right when he had to think before, i.e. thinking about the earth and not in the sky thinking about life and existence No transcendent ideas and values, or rather, thinking of the body, not the soul, and the desire to live and contribute to it instead of living as guests.

KeyWords: Genealogy ;Philosophy ; Theology ; Metaphysics ; Existence.

المقدمة:

لقد شكلت الميتافيزيقا على امتداد تاريخها صلب المنظومة الثقافية الغربية فقد كانت تحتل مكانة كبيرة في التفكير الفلسفي منذ ولادتها في العصر اليوناني، على الرغم من اختلاف القراءات التي تناولت هذا المفهوم فقد تعرضت لعدة انتقادات خاصة من الفيلسوف الألمانينيتشه الذي اعتبرها تفكير يحاول تبرير الأخطاء الانسانية بإضفاء عليها صفة الحقيقة، لأن الحقيقة في نظر الفيلسوف الميتافيزيقي سلطة عليا وقيمة مثلى الذي لا يطاله الشك، مما أفرزت لنا إنسان يعيش تحت وطأة عالم آخر مبتعدا عن عالمه الحقيقي فتسبب في فقدان العلاقة المتبادلة بينه وبين الحياة والوجود، لذا نحاول طرح المشكلة التالية: كيف كانت مساهمة نيتشه في نقد وتفكيك العقول التي انتجت التفكير المتعالي الذي أساء للإنسان والحياة؟ وكيف سعى إلى إعادة الاعتبار لقيم الوجود والحياة للفلسفة؟

ومن فرضيات هذا البحث تتمثل في اعتبار أن الميتافيزيقا هي محاولة لتبرير ضعف الارادة الانسانية، ومن بين أهداف البحث مساهمة نيتشه لتأسيس فلسفة للحياة والوجود، وقد اعتمدت على المنهج التحليل النقدي.

I. التفكير الجنيالوجي محاولة لمجاوزة الميتافيزيقا:

تعد الجنيالوجيا من أهم المداخل التي طرحت في الفكر المعاصر من أجل مجاوزة الميتافيزيقا، وقد وضع أركانها نيتشه من أجل دراسة نشأة الأشياء وتكوينها لإثبات نسبها والوقوف عند أصولها، ومن هنا تسعى لدراسة نشأة الميتافيزيقا والقيام بعرض تاريخي للوقوف عند الأصل الذي صدرت عنه ذلك الأصل منذ البداية، وهو ما يؤكده نيتشه في مؤلفه جنيالوجيا الأخلاق "إن الأمر يتعلق هنا بتأملات حول أصل أحكامنا الأخلاقية المسبقة"(بعبد العالي، 1991، صفحة 26).

1. بمعرفة الأصل تزداد تفاهته:

غير أن الجنيالوجيا تكتسي لدى نيتشه دلالة خاصة إذ أنها من منظوره لا تهدف فحسب إلى الوقوف عند الأصول ومرتكزات النشأة، بل تتعدى ذلك لخلخلة هذه الأصول والمرتكزات، ومن ثمة فأسئلة الجنيالوجيا ليست أسئلة ما هوية أي أسئلة تتساءل عن ماهية (الخير، العدالة، الفضيلة) وغيرها لأن ذلك سيغرقنا في الميتافيزيقا وإنما تتساءل عن ظروف تشكلها، أي بدل أن يسأل باستفهام يسأل كيف ومن ومتى ، كيف تشكلت القيم ومتى تشكلت ومن وراء تشكلها، "إن ما يهمنا هو معرفة الكيفية التي تسمى بها الأشياء لا معرفة ماهيتها، فما يشتهر به شيء ما، إن اسمه ومظهره وقياسه ووزنه، كل هذه الأمور التي تنضاف إلى شيء بمحض الصدفة والخطأ، تصبح من شدة إيماننا بها يشجعنا على ذلك تناقلها من جيل إلى آخر، تصبح بالتدريج لحمة الشيء ويتحول ما كان مظهرا في البداية إلى جوهر ثم يأخذ في العمل كماهية"(بعبد العالي، 1991، صفحة 32).

إن الميتافيزيقا تدعي بأن أهم ما في الأشياء وأكثرها قيمة يكمن في أصولها، وبأن الأشياء كانت كاملة في بداياتها، لذلك فإن هدف الجنيالوجيا ليس استعارة جذور الهوية، وإنما القضاء عليها فبمعرفة الأصل تزداد تفاهة الأصل، وهو ما يجعلها تقف في مقابل الميتافيزيقا، ليصبح تاريخها هو التاريخ المضاد للتاريخ الميتافيزيقي(عبد الحليم، 2001، صفحة 152).

يترتب عن هذا المنهج الفلسفي رفع صفات القداسة والطهرانية والكمال عن الأصل، باعتباره مصدرا للمعارف وشرطا لإمكانها وإنما يصير الأصل أصولا، والبداية بدايات، والواحد متعددا، والمتطابق مختلفا، " كل الأشياء المعمرة، كل الأشياء التي تعيش زمنا طويلا يغطيها العقل شيئا فشيئا إلى درجة أنها تنغمس فيه كليا فتبدو كأنها عقلانية خالصة، ويصبح أصلها أو منشؤها اللاعقلاني شيئا لا يمكن تصوره، ألا يبدو الكشف عن التاريخ الدقيق لأصل ما، وبشكل شبه دائم تقريبا، إما أنه غير قابل للتصديق، وإما أنه تدنيس للمقدسات "(فريدريك، 2013، صفحة 15)، لذلك تستهدف الجنيالوجيا الكشف عن الأصل، لما له من دور تأسيسي وجوهري في بناء منظومة القيم الأوروبية كلها " إذا أولى الجنيالوجي عنايته إلى الإصغاء إلى التاريخ بدلا من الثقة في الميتافيزيقا سيدرك أن وراء الأشياء هناك شيء آخر، لكنه ليس السر الجوهري الخالد للأشياء، بل سر كونها بدون سر جوهري، وكونها بدون ماهية أو كون ماهيتها قد نشأت شيئا فشيئا انطلاقا من أشياء غريبة عنها فما نجده عند البداية التاريخية للأشياء ليس هوية أصلها المحفوظ، وإنما تعتبر أشياء أخرى، إننا نجد التعدد والتشتت".

(Michel, 1971, p. 184)

2. الحس التاريخي للجنيالوجي:

ينعت نيتشهالجنيالوجيا بأنها الحس التاريخي أو المعرفة التاريخية، وفي هذا السياق يرفض كل المحاولات التي تسعى لمطلقية التاريخ، فإذا ما تخلص الحس التاريخي من قبضة النظرة المطلقية إليه أصبح الأداة المفضلة لدى الجنيالوجي، ويقذف الحس التاريخي بكل ما اعتقد أنه خالد في نظر الانسان إلي الصيرورة، فالعواطف وخاصة منها الأكثر نبلا وبعدا عن المنفعة والتي اعتقد أنها خالدة، تثبت أنها مجرد تاريخ وكذلك الغرائز التي اعتقد أنها ثابتة تسعى المعرفة التاريخية إلى إظهار تحولاتها ورصد لحظات قوتها وضعف سيادتها(ميشال، 1988، صفحة 59).

ويتأسس موقف الجنيالوجيا من التاريخ على رفض طريقة تعامل التاريخ التقليدي مع حوادث الماضي في علاقتها بالحاضر، فهو الذي يحرص على عودة البشر لجذور هويتهم، وحفظ الخلق لآثار السلف بصيانة ما وجد منذ غابر الأزمان، بمعنى أنه تاريخ التراث الذي يجل ويعترف بعظمة الأجداد، وهو التاريخ الذي تعيب عليه الجنيالوجيا كونه يعوق كل إبداع باسم الوفاء والإخلاص، وعلى النقيض منه يثبت الحس التاريخي التعدد بدل الاتصال والخلود، ويمكن القول، أن الجنيالوجيا بتصديها للاستعمالات التقليدية للتاريخ تحرر هذا الأخير من النزعة الأبدية والغائية التي تسيطر عليه، يتعلق الأمر إذن " بأن تجعل الجنيالوجيا من التاريخ ذاكرة مضادة، وتثبت فيه شكلا آخر للزمن"(ميشال، 1988، صفحة 63)، وهكذا يكتب الباحث الجنيالوجي التاريخ الفعلي الذي يجر كل شيء في حركة تاريخية، فيزحزح كل اعتقاد بالثبات والهوية والرسوخ، فحيث يعتقد أن قيمنا وغرائزنا ومشاعرنا على مرتبة من المطلقية يسعى التاريخ الفعلي إلى تقويض ذلك الوهم المطمئن.

ومع النقد الجنيالوجي ينشأ مبدأ الاختلاف والتفاوت في أصل القيم وقيمتها، على النقيض من المبدأ الأحادي الذي تسبح فيه الميتافيزيقا، سواء له قيمة في ذاته أو لما له قيمة بالنسبة للجميع، فلعبة التاريخ الكبرى تتمثل فيمن يفوز بالقيم ويستأثر بها ويستعملها في معنى مغاير ويحرفها ويعكسها، ويستولي على جهاز المفاهيم

ليوظفه على نحو يقيد به القواعد والقيم التي تتسلح بها الارادة التي تشارك في لعبة الصراع(ميشال، 1988، صفحة 53).

وهكذا، أضحى التاريخ تاريخ عداوات دنيئة وتأويلات مفروضة بالإكراه ونيات منحرفة تتستر وراءها أحقر الغايات، إلا أن الفلسفة التاريخية وإن فندت كل ما هو معطى خالد أو حقيقة مطلقة فهي ترسخ قناعة أن الإنسان هو نتيجة صيرورة وأن ملكة المعرفة هي كذلك نتيجة الصيرورة.

3. الكشف عن القوى المختفية وراء أقنعة اللغة:

لقد أدرك نيتشه في تعامله مع أنماط الثقافة الإنسانية خاصة منها الدين والميتافيزيقا أنه يتعامل مع لغة تعكس الفكر الانساني، وهي لغة لا تقول حقيقة ما تعنيه مباشرة، بل تخفيمعنى مضمر وهو المعنى الأقوى، فاللغة إذن تولد الاعتقاد بأنها تتجاوز صورتها اللفظية وأن هناك أشياء تتكلم دون أن تكون لغة، كغريزة السيطرة مثلا التي تختفي وراء الكلمات(ميشال، 1988، صفحة 33)، وإذا كان تاريخ الفكر الإنساني هو تاريخ اللغة تاريخ التأويلات المتصارعة من أجل اللغة فإن مهمة الجنيالوجيا كمنهج تأويلي هي تعرية التأويلات المختلفة من الأقنعة.

وفقه اللغة (فيلولوجيا) عند نيتشه يسعى إلى اكتشاف القوى الفاعلة، وهو العلم الذي يستطيع تغيير النشاطات الفعلية بين القوى، إنه لا يهتم بما تقوله له الكلمات وإنما يهتم بمن يمتلك سلطة الكلام، وبالقوى التي تتصارع في اللغة من خلالها، أي القوى التي تمتلك سلطة التأويل ومنح الأشياء معانيها، "إنها متعة وأي متعة للذي يملك عدا أذنيه آذانا أخرى، بالنسبة لي أنا عالم النفس الحاوي، الذي يعرف كيف يرغم، كل ما يرغب في الصمت على الكلام بصوت عال"(فريدريك، أفول الأصنام، 1996، صفحة 6).

هكذا يعرض فقه اللغة الجديد نفسه كعلم فاعل حيث يفسر الظواهر كأعراض يجب البحث عن معناها في القوى التي تتولى مهمة إنتاجها، إلى جانب تفسيره للقوى في حد ذاتها من حيث نوعيتها فاعلة أو ارتكاسية(جيل، 1993، صفحة 67)، وعليه فإن العلاقة التي تقوم في عملية التأويل هي علاقة عنف لا علاقة توضيح وكشف، فكل تأويل لا يسبر باطن التأويل الذي نفسه وإنما يستولي كل تأويل ويستحوذ على تأويل آخر سبقه (ميشال، 1988، صفحة 49).

هذا، ويبدو لنيتشه أن السبب في أن الميتافيزيقا فشلت في اكتشاف المنهج الجنيالوجي هو أنها كانت تصوغ سؤالها بطريقة خاطئة "ماهو" وهي تدين بهذا لسقراط وأفلاطون، وهو سؤال لا يؤدي في نظر نيتشه إلى بلوغ الهدف المرجو وهو جوهر الفكرة، لذلك يختار نيتشه السؤال "من" والذي يعني حسب تصوره أنه بتوجيهنا صوب قيمة معينة أو فكرة ما بطرح هذا السؤال فإن تساؤلنا يرادف التساؤلات الآتية: ما القوى التي تستولي على القيم والأفكار؟ وما هي الإرادة التي تمتلكها والتي تعبر عن نفسها فيها وتتجلى فيها أو بمعنى أصح تختفي فيها ؟، وعليه فإن السؤال "من" هو الموصل إلى الجوهر الذي يعني الشيء وقيمته، والجوهر إنما تحدده القوى ذات القرابة بالشيءوالإرادة ذات الصلة مع هذه القوى والوصول إلى التناسق الحاصل بين القوة والإرادة هو بمثابة الوصول إلى المعنى والقيمة(جيل، 1993، صفحة 99).

وعليه، فإن التأويل لا ينصب على المعنى الكامن في المدلول بقدر ما ينصب على الذي قام بالتأويل، فليس مبدأ التأويل إلا المؤول، فليس المهم إذن معنى القيم ودلالة المفهوم بقدر ما هو بلوغ الفهم والقراءة الجنيالوجية إلى فضح ومعرفة (من يفسر) و (من يؤول) و (من يستولي ويسيطر)، وما يعنيه نيتشه أن الذي يختص خلف المعاني التي تكتسبها القيم والأصباغ التي تتلون بها الأحداث هي الإرادة التي تتقنع وتتستر بغية بلوغ أهوائها ومطامعها، فإذا كان التأويل هو فن اختراق الأقنعة والكشف عنها فإنه أيضا فن اكتشاف من يتقنع ولماذا ولأي غاية تجري المحافظة على قناع عبر إعادة صياغته، مما يدل أن الأصل لا يظهر منذ البداية وأن الاختلاف في الأصل لا يظهر إلا عبر تأويل جنيالوجي متمرس وبالتالي وجهة نظر مؤول بعيد النظر(جيل، 1993، صفحة 10).

وتكشف الجنيالوجيا أن الارادة التي من شأنها قلب الدلالات وتزييفها هي الارادة الارتكاسية النافية التي يجري بموجب خبثها وزيفها تحويل القيم ليتحول الضعف إلى قوة، والقوة إلى ضعف وهي الارادة التي من أجل انتصارها على ارادة القوي تتسلح بأفكار متعالية(مملكة الإله، الطاعة، السعادة الأبدية) لتضفي على الأفكار والقيم هالات القداسة، وتضمن تحقيق مشروع انتقامها الذي تحركه مشاعر سلبية(فريدريك، أصل الأخلاق وفصلها، 1981، صفحة 41)، وعلى الباحث الجنيالوجي أن يكشف عن لعبة صراع الارادات فحيثما يصوب حفرة وتنقيبه عليه أن يبحث عن مظاهر الاستلاء والهيمنة والصراع، وكلما صادف حديثا عن المعنى والقيم والفضيلة وجب عليه أن يعمل على تعرية أساليب السلطة والهيمنة، ومنطق صراع الارادات الذي يؤدي إلى تعددية التأويلات لظاهرة بعينها، يقود الجنيالوجيا إلى تأسيس تدرج داخل التأويلات ولا يعود مبدأ التدرج إلى حقيقة الظاهرة في ذاتها وإنما إلى نبل أو دناءة الارادة التي تقدر، ومبدأ التدرج تبعا لقيمة الارادة هو ما يراف مشكلة التراتب التي تعني بها الجنيالوجيا ويعبر عن ذلك نيتشه بقوله: "قضية التراتبية هي قضيتنا..وهي قضية جديدة"(فريدريك، إنسان مفرط في انسانيته، 1998، صفحة 13).

إن معنى مبدأ التراتب أنه مبدأ شامل وكلي يصدق على تاريخ الإنسانية، وتاريخ الفكر الإنساني، لأن الاختلاف في الأصل يولد بالضرورة ما هو أعلى وما هو أدنى، أي يولد بالضرورة الاختلاف والتباين والتفاوت في القيمة، هكذا تعمل الجنيالوجيا وسط اللعب اللامتناهي للمنظورات على إثبات الاختلاف والتفاوت والتراتبية من خلال أعراض "النبل والوضاعة" "الصحة والمرض" "القوة والضعف" "الفاعلية والانفعال"، والمنهج الجنيالوجي يكشف عن اختلاف الإرادات ومعاني قيمها، يتبين له التفاوت والاختلاف في قيمة الأصل وبناء على ذلك يحصل التدرج من المعنى إلى القيمة، ومن التأويل إلى التقويم، ومعنى الشيء هو العلاقة بين هذا الشيء والقوة التي تستولي عليه وقيمة الشيء هي تراتب القوى التي تعبر عن نفسها فيه(جيل، 1993، صفحة 13)، وبالتالي تنسب إلى الجنيالوجيا مهمة الكشف عن الطابع الاصطناعي في بلورة المفاهيم والقيم والعمل على اكتشاف الوظيفة الفعلية والحقيقية في صراع القوى والإرادات المتحاربة، باعتبارها منهجا أو طريقة في التأويل تملك القدرة على كشف طبيعة إرادة القوة وراء مختلف الاستعارات خاصة الفلسفية منها، أي الكشف عن الذوق الحسن أو الذوق الرديء لصانعي الفكر، عن ضعف أو قوة إرادتهم.

II. إساءة استخدام معنى الإنسان والحياة:

وجه نيتشه نقدا عنيفا إلى العقول التي كانت السبب في إقحام الميتافيزيقا في الحياة، وذلك من خلال تفكيك العقل اللاهوتي الديني والعقل الفلسفي المثالي بهدف القضاء على ما تدعيه تلك العقول من ترفع عن هذا العالم وعلو عليه، باعتبار أن الموروث اللاهوتي والفلسفي هما وجهان لتخفي وراء أقنعة الزهد ونفي الحياة بهدف استغلال الإنسان والانتقام من الحياة والوجود.

1. تفكيك العقل اللاهوتي المستغل للإنسان:

يعتقد نيتشه أن المسؤول الوحيد عن مهمة التأويل ومن ثم السيطرة في الديانات هم الكهنة الذين يسعون إلى كسب ثقة المتدينين الضعفاء والحد من قدرة الأصحاء بازدرائهم واحتقارهم، ولذلك فإن أولى صفات الكاهن هي التخفي خلف مئات الأقنعة، واحتقاره للذات الانسانية باستخدامه لأبلغ الوسائل والتقنيات التي يجري بها إلحاق الضرر وتعذيب للنفس، بغية أن يرسخ في ذهن الإنسانية أن احتقار الذات يزيد المؤمن رفعة وعلاء، والسيطرة على أي انفعال يعتبر قمة أخلاقية.

ونظرا لهذا نجد نيتشه يصف رجال الدين بأبشع الصفات وأعنفها "إن هؤلاء يدورون حولك بطنين الذباب يرفعون أناشيدهم تزلفا إليك ليتحكموا في جلدك ودمك إنهم يتوسلون إليك، فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء وما يحتال غير الجبناء"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 41)، إن التأويل لدى الكاهن لا يعتمد إذن على الجد ومحاولة الفهم الصحيح ليصل بنا بالضرورة إلى تغيير صائب ونافذ، وإنما هو تأويل الغرض منه جعل العالم الداخلي للإنسان منهكا متعبا مصابا بالإعياء، ومع هذا التأويل الكاذب ينقلب حكم القيم وتنعكس دلالة المفاهيم، فيسمى أكثر الأمور اضرارا بالحياة (صادقا) و(نافعا)، وما يرفع من قيمتها ويؤكدها ويجعلها تنتصر (كاذبا) و (ضارا).

وإجمالا فإن تأويل رجل الدين تأويل خاطئ الغرض منه السيطرة والاستيلاء على إرادات من لا قداسة لديهم، ولذلك الكاهن يستخدم الطرق الملتوية، ويخوض حربا دهاؤه هو محركه فيها، وهو إذ يسعى إلى ذلك ببذل جميع طاقاته من أجل انتزاع السيطرة والمجد من أولئك الذين يمتلكون القوة بين أيديهم، "لقد أخفيتم وجوهكم بأقنعة الآلهة أيها الرجال الأتقياء فأنتم ديدان قبيحة تتشح برداء الأرباب، إنكم لجد متبجحون يا رجال التأمل، حتى إن زرادشت نفسه أخذ بمظاهر جلودكم الإلهية فخفيت عنه الأفاعي الكامنة وراءها"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 35).

ومن وسائلهم التي يستخدمونها أخلاق العبيد التي تمثل غريزة القطيع في الفرد وذلك لتحكم الشعور بالطاعة فيها وتجانس سلوك الجميع في ظل قواعدها العامة، إن تصرفات الإنسان تخضع في هذه الحالة لنوع من الآلية، ناتج عن إطاعة القواعد السائدة وتطبيق القيم المتعارف عليها، ويصبح السلوك أنماطا متجانسة لا تنوع فيها وتسود روح المحافظة تجعلها تحذو على نحو أعمى ومن غير إعمال للفكر، قد تأخذ القطعان أشكال وأسماء مختلفة لكنها دائما مجموعات ترتبط معا على أساس التماثل بين أفرادها، إن انصهار شخصية الفرد ضمن الجماعة يعني أن

هذه الجماعة سوف تشعره بالقوة والمنعة، لكن هذا الانصهار يعني أن المجتمع يؤدي إلى ايجاد أفراد متشابهين، بالتالي التفكير سوف يكون محدود في أطر معينة وأساليب الحياة متشابهة يسيطر عليها الجمود الناجم من خوف متنوع المصادر (التغيير، التفكير، الاختلاف).

2. تفكيك العقل الفلسفي المسيء للحياة:

لا يرى نيتشه في الموروث الفلسفي إلا وجها لتخفي سبل الدين، ونتاجا يتستر خلف معانيه وغاياته ليتأسس عليها، إن الفلسفة تشتق منطقها ومعناها من لغة الدين والمثال الزهدي يتخذ عند رجل الدين معنى الإيمان الحقيقي ورخصته العليا للوصول إلى السلطة، إن نفي كل أنواع الأسر والإكراه وفعل تبني الفكر اللاهوتي هي وسائل الفيلسوف لخلق الأمثل من الظروف الملائمة وليتمكن من استعراض قوته وبلوغ ملء الإحساس بقدرته، فكل شهوة هي عائق في طريق القدرة والفعل والنشاط وإثبات الذات(فريدريك، أصل الأخلاق وفصلها، 1981، صفحة 29)، والتخلص من الإكراه بجميع أشكاله يؤدي في زعم الفيلسوف إلى صفاء الفكر والاندفاع والتحليق في الأفكار وإلى السكينة في كل ما يبدو عميقا في الأمور، بالتالي يعتقدون أن الفيلسوف لا يمكن أن يولد ويترعرع ويكون له الحق في البقاء إلا إذا كانت له هيئة تأملية أو روحانية، أي هيئة الرجل المتدين المسيطر على العالم قبل ظهوره(جيل، 1993، صفحة 10).

إذا الدين هو قناع الفلسفة التي تعد وسيلة لبسط سيطرته على الفكر وأن إرادة الفيلسوف مستمدة من إرادة رجل الدين، وهو ما يفسر في رأيه اتجاه الفلسفة نحو الانحطاط، ويفسر أيضا اتجاهه إلى الميتافيزيقا باعتبارها وريثة الدين، وهكذا ما إن يجد المرء مفرا لنفسه من فكرة العالم التي فرضتها الأديان، حتى يجدها في الميتافيزيقا مرة أخرى على صورة أدق وأكثر إقناعا، مقنعة بإطار منطقي دقيق، مما يجعلها أكثر خطورة من ذي قبل، ذلك أن العالم الآخر الميتافيزيقي أصبح موصوفا بأرفع الصفات وأعلاها فهو عالم المثل أو الأفكار، وهو العقل الخالص وله ثبات ونقاء لن تجد لهما في عالمنا نظيرا، وهذا الارتباط بين الدين والميتافيزيقا، كان ينمو على حساب الفلسفة والوجود، إذ أنه ومنذ زمن طويل لم يجر البحث عن معنى الوجود إلا بطرحه كشيء خاطئ أو مذنب، شيء ظالم كان من الضروري تبريره، لذا كانت ثمة حاجة إلى الإله لتفسير الوجود، وكانت هناك حاجة لاتهام الحياة من أجل افتدائها، ولافتدائها من أجل تبريرها(جيل، 1993، صفحة 27).

لقد جرى تقويم الوجود لكن بوضع النفس دائما من جهة نظر الإحساس بالخطأ وهذا هو الإلهام الديني الذي يفسد الفلسفة، فالفلاسفة استخدموا الألم كوسيلة للبرهان على ظلم الوجود، ولكن كذلك كوسيلة في الوقت نفسه لاكتشاف تبرير سام وإلهي له(جيل، 1993، صفحة 28)، حيث يرمي التأويل الأفلاطوني تماما كالتأويل الديني إلى إقامة التراتب بين وجهي الطبيعة البشرية(النفس والجسد)، فيضع النفس كأعلى والجسد كأسفل، إن الجسم حقل الشهوة والتجربة سجن تحررنا منه الفلسفة عن طريق الإفلات إلى عالم آخر(بيار هيبر، 1994، صفحة 58).

فمنذ سقراط وأفلاطون نجد أن الفلسفة هي التي تعلم الإنسان كيفية الموت، أي موت الجسد وحتى في تاريخ الفلسفة الحديثة مع ديكارت وكانط كانت الفلسفة تبحث عن تلك الحساسية المتعالية من الذات البشرية التي تنطبع عليها الأشكال والألوان والأحجام والأصوات، في ظل تغيب كامل للجسد، وبهذا فالخطاب الميتافيزيقي هو خطاب مفارق ومعاد للحياة.

III. استعادة الحياة والانسان من مجدهما الضائع:

حاول نيتشه إعادة الاعتبار لقيم الوجود والحياة للفلسفة، معتبرا أنه المجال الحقيقي والخصب لها، وقد سعى من أجل رفع من شأن الإنسان الخارج عن قانون الخضوع والاستسلام للميتافيزيقا، وإعادة إقامة العلاقة المتبادلة بين الإنسان والحياة يعيش من خلالها عالمه الحقيقي الأرضي حيث الاحتفال بالحياة والوجود.

1. الوفاء للأرض:

جاء نيتشه لينسف كل القيم التي أفرزتها التقاليد الفلسفية والدينية، حيث وضعت العقل تاجا لتحقق سيادتها المطلقة، إنه يعد فيلسوف القلب بل هو نفسه يرى هذا بدون مجاملة "قلب كل القيم تلك هي صيغتي المبجلة للتعبير عن أرقى وعي ذاتي للإنسانية.. وأن أعي نفسي كنقيض لأكاذيب آلاف من السنين"(فريدريك، هذا هو الانسان، 2006، صفحة 154)، إن نيتشه يهوي بمطرقته على كل تفكير ديني، وكل فلسفة مثالية ليحاكم كليهما واتهمهما بالسقم، وذلك التفكير زيف حقيقة الوجود فرأى أن الفلسفة المثالية هي حتى الآن سوى نوع من المرض، لقد كذب كل تفكير متعال حلق بعقله إلى السماء ولم يلتفت إلى الأرض، كل تفكير مفارق يتعالى فيستعلي على الحياة، إنها جريمة فكر قتل عالم الأرض صنعه زيف الخيال، فسواء المسيحية أو الفلسفات المثالية بتمييزها بين عالم علوي وعالم سفلي أرضي متغير لا تعبر إلا عن تفكير منحط "إن تقسيم العالم إلى حقيقي، وعالم ظاهري لا يمكنه أن يصدر إلا بإيعاز من الانحطاط، ولا يمكن أن يكون إلا علامة حياة آفلة"(فريدريك، أفول الأصنام، 1996)، ولذلك على الإنسان أن تكون له العزة وأن يهتم بالحياة "لقد علمتني ذاتي عزة جديدة أعلمها الآن للناس: علمتني ألا أخفي رأسي بعد الآن في رمال الأشياء السماوية، بل أرفعها رأسا عزيزة ترابية تبتدع معنى الأرض"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938).

يدين نيتشه إلى دعاة الماورائيات و تطلع الإنسان إلى السماء ويطلب منه أن يعود للأرض، لأن من لا يهتم بالأرض لن يعمرها ولن يقدم شيئا للإنسان في الواقع، بل يبيع له الوهم في مكانٍ لا ندركه "أتوسل إليكم، أيها الإخوة بأن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمال تتعالى فوقها، إنهم يعلونكم بالمحال فيدسون لكم السم، سواء اجهلوا أم عرفوا ما يعملون، أولئك هم المزدرون للحياة، لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون، لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938).

2. الإصغاء للجسد:

لقد تجاوز نيتشه ثنائية الروح والجسد، إلى أحادية الجسد تتأسس على البعد البيولوجي يصير به الإنسان مثله مثل كل سائر الحيوانات، هذا الطرح تصحيحا لكل الفلسفات التي نظرت إلى الإنسان نظرة متعالية يملأها

الغرور "لقد أعدنا تصحيح المفاهيم، لقد عدنا متواضعين في كلّ الحقول، إننا لم نعد نشتق الإنسان من الروح، ومن الألوهية، وإنما صرنا نضعه بين الحيوانات"(فريدريك، عدو المسيح، 2012، صفحة 116)، فها هو الإنسان هو ذلك الجسد الذي يظهر أمامنا كأجساد الحيوانات، لكنه الحيوان الأقوى والأدهى من كل الحيوانات لكننا نعده الحيوان الأكثر قوة ذلك إنه الأكثر دهاء، فالجسد هو التركيبة الجوهرية للإنسان أولا وقبل كل شيء، إذ هو أساس بناء الذات الإنسانية التي تعيش على هذه الأرض، "يا إخوتي، فأصغوا إلى صوت الجسد الذي أبل من دائه، لأن هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الأصوات"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 21).

لقد كانت ثنائية روح/جسد تراتبية اللاهوتيين والفلاسفة المثاليين قد وضعوا الروح في أعلى درجة من الجسد، فيفسر احتقارهم للجسد وإرادة إماتته بأنهم غير قادرين على تحقيق مطامحهم، فبهذا يتمنون الموت لأجسادهم ، وامتدت نظرة الاحتقار إلى الجسد باعتباره حاملا للنجاسة والغرائز المفسدة، ففلسفة الجسد عند نيتشه تنسف بتلك الثنائية التراتبية القائمة على تعالي الروح على الجسد باعتبار الأولى جوهرا والثاني عرضا، فهو فيلسوف القلب حيث أصبح الأمر عنده معكوسا، فالجسد هو الجوهر، هو الأصل وما الروح أو النفس أو العقل إلا عرض غير مستقل بذاته، ومتعلق بالجسد بل مجرد جزء منه.

ودفاع نيتشه عن الجسد هو أيضا دفاعه عن أجزائه العضوية المتمثلة في الحواس كجانب عضوي حسي فيزيولوجي مادي يفصح عن معنى الأرض، فهي التي تكشف عن تغيره وصيرورته، وبالتالي هي التي تقول الحقيقة "وما دامت الحواس تكشف عن الصيرورة، عن اللاثبات، عن التحول، فإنها لا تكذب"(فريدريك، أفول الأصنام، 1996)، فهي على خلاف العقل الذي أوهمنا بأفكار خاطئة عن العالم الذي نعيش فيه مما وسع الخلاف بيننا أكثر فأكثر فلا يجب أن نصدقه، وأعتقد أن الأفكار أشد فتنة من الحواس، فالحواس لم تخدعنا لأنها بينت لنا أن العالم في تغير دائم، والتغير يوحي بوجود تاريخ للعالم، وإضفاء التاريخية على العالم افتقر إليها عقل الفلاسفة كونه كان مُتعاليا على العالم، ومتعاليا على الحواس أيضا، وبهذا فإن أدوات التفكير والتأثر ومشروعيتها ليست روحانية أبدا، فهي مادية عضوية نابعة من الجسد.

فهو يرى أن في اعتراضه على موسيقى صديقه فاغنر هو في الحقيقة اعتراض حواسه على ذلك حيث لم تستسغها فقد قال "إن اعتراضي على فاغنر اعتراضات فيزيولوجية، أتنفس بصعوبة ما أن يبدأ موسيقاه بالتأثير على قدمي، تحقد عليه وتثور وتشعر قدمي بالحاجة إلى إيقاع الحاجة إلى الرقص والسير"(فريدريك، هذا هو الانسان، 2006، صفحة 228)، فردود العقل السلبية والإيجابية تعبر عنها مناطق جسمية وليست تعبيرا فكريا تجريديا، بل ويرجع نيتشه نسبة التفكير والعبقرية إلى الحواس، فها هو يشيد بقدرة الأنف التي أهملها الفلاسفة، فهو يقول "هذا الأنف مثلا لم يسبق فيلسوف أن تحدث عنه بتوقير وامتنان، قادر على أن يتبين في الحركة أدنى الاختلافات التي لم يكتشفها مطياف"(فريدريك، أفول الأصنام، 1996، صفحة 27).

لقد أحب نيتشه الحياة، ورأى أننا ما وجدنا إلا لنحيا لأننا أجدر بأن نحيا ونعيش، وحياة الإنسان لا تكون خارج هذا الوجود، هذا العالم الظاهري بل داخله، فالعقلانيون بأحكامهم أقاموا جريمة قتل ومجزرة لكل ما هو دنيوي حي بأحكامهم وقتلوا حتى الحقيقة، فلا شيء حقيقي خرج حيا من بين أيديهم، ولذلك يؤكد نيتشه أن العالم الحقيقي هو العالم الظاهر، إنه هذا الذي أمامنا أمام حواسنا الذي يحتوينا إنه الأرض، ويتجاوز ثنائية: العالم الحقيقي المفارق/العالم الظاهر إلى أحادية العالم، وهو هذا العالم الذي نحيا فيه.

3. الإنسان المتفوق:

لقد كان على نيتشه متمثلاً بالحكيم زرادشت أن يبحث عن الإنسانية المتفوّقة فلم يجد من يسمعه بين القطيع فيحسبونه تارة مهرجا يقدم عرضا فكاهيا، وتارة يرونه ثملا لا يعي ما يقول، وكأن الناس صموا آذانهم إلا على موسيقى القطيع، وسيمفونية الرغبة الواحدة " ليس هنالك راع ، وليس هنالك إلا قطيع واحد، إنكل من الناس يتجه إلى رغبة واحدة المساواة سائدة بين الجميع ومن اختلف شعوره عن شعور المجموع يسير بنفسه مختارا إلى مأوى المجانين"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 11)، لقد كان دأب نيتشه أن يجد إنسانا متفوقاخارجا عن قانون القطيع، معرضا روحه للفناء في سبيل نجاة هذا الإنسان، فمن هو الإنسان المتفوق؟ يقول زرادشت خاطبا الحشد قائلا " إنني آت إليكم بنبأ الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه، فماذا أعددتم للتفوق عليه؟"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938)، لعل فكرة الإنسان المتفوق لنيتشه هي من أهم المفاهيم التي أنتجها فكره، الإنسان المتفوق لا يظهر إلا بعد موت الميتافيزيقا، في هذه اللحظة تتضح إمكانات الإنسان بحرية، أما دائرة عمل الحرية فلا محدودة(بيار هيبر، 1994، صفحة 84)، والواقع أن الفرق بين الإنسان المتفوق والعادي يتجلى في نظرة كل واحد منهما إلى الحياة، الإنسان العادي صنع عالم آخر فأصبح تعيسا به، أما الانسان المتفوق فقد قتل هذا العالم لصالح الارادة، الانسان العادي أصبح ثقيلا بالقيم على عكس الثاني ينشد الخفة من القيم، وبالتالي الإنسان العادي ما هو إلا شيء وجب تخطيه،إن العدمية التي وصلت إليها أوروبا في القرن التاسع عشر تسببت فيها الميتافيزيقا أفقدت تلك العلاقة المتبادلة بين الإنسان والحياة فبات الإنسان يعيش تحت وطأة عالم آخر مبتعدا عن عالمه الحقيقي حيث الاحتفال بالحياة والقيم السادة التي تنشد التفوق الخلاق، إلى عالم الخضوع والجبن والتسليم للقدر.

يتبع الإعلان عن الإنسان المتفوق مباشرة تلميح إلى نظرية داروين في النشوء والارتقاء " إن كلا من الكائنات أوجد من نفسه شيئًا يفوقه، لقد اتجهتم على طريق مبدؤها الدودة ومنتهاها الإنسان، غير أنكم أبقيتم على جل ما تتصف ديدان الأرض لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى، على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته،لقد أتيتكم بنبأ الإنسان المتفوق إنه من الأرض كالمعنى من المبنى، فلتتجه إرادتكم إلى جعل الإنسان المتفوق معنى لهذه الأرض وروحا لها"(بيار هيبر، 1994، صفحة 36)، لكن لا ينبغي فهم هذا المقطع بحرفيته فهو لا يستخدم النظرية كحجة بل كمقارنة تربوية كصورة، هكذا ليس الإنسان الأسمى نوعا جديدا ولده الانتخاب الطبيعي سوف يحل محل الإنسان الحالي مثلما حل كنوع محل الأنواع السابقة من القرود، إن الداروينية لم

تكتفي نظرتها بتطور الإنسان بل تجاوزت نظرتها إلى تطور كل الموجودات بما فيها الطبيعة، وبما أن الميتافيزيقا لا تنتج إلا التشابه بدل الاختلاف والطبيعة لا تقبل هذا التشابه، فإن الإنسان وجب أن يتطور بدوره ليس بيولوجيا فقط وإنما في علاقته بالحياة، وبما أن سبب هذا الجمود مرده على القيم فقد وجب قتل علة هاته القيم أي وجب الإعلان عن موت عالم آخر مثقل بالقيم.

هنا يتكلم نيتشه عن صفات الانسان المتفوق المبدع والمجدد في كثير من المواضيع، ويبين أنه لن يحظى إلا بالعداء والاتهامات، وأن من واجبه مساعدة الآخرين على الخروج عن القطيع لأنه لا يسعى لتكوين قطيع هو الآخر ولا يريد أن يكون راع هو الآخر" إنني بحاجة إلى رفاق أحياء لا إلى رفاق أموات وجثث أحملهم إلى حيث أريد، إنني أطلب رفاقًا أحياء يتبعونني لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيان توجهت، إنني ما جئت إلا لأخلص خرافا عديدة من القطيع وسوف يتمرد الشعب والقطيع علي، إن زرادشت يريد أن يعامله الرعاة معاملتهم للصوص، قلت: رعاة غير أنهم يُدعون بالصالحين والعادلين، قلت: رعاة غير أنهم يدعون بالمؤمنين بالدين الحق"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 15)، ويكتب عن من يعارض المبدع قائلا " انظروا إلى أهل الصلاح والعدل لتعلموا من هو ألد أعدائهم، إنه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم، ذلك هو الهدام ذلك هو المجرم، غير أنه هو المبدع"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 15)، وعن هدف المبدع المغاير لكل هدف الفلاسفة والكهنة"إلي بالرفاق، إنني أطلبهم مبدعين ولا أطلبهم جثثا وقطعانا ومؤمنين، إن المبدع لا يتخذ له رفاقا إلا من كانوا مثله مبدعين، إنه يتخذهم ممن يحفرون سننا جديدة على ألواح جديدة"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 15)، بذلك يثبت نيتشه أنه داعٍ حقيقي للحرية لا ساعٍ لبناء قطيع جديد كغيره من الدوغمائيين، ولهذا نراه لا يمجد نفسه بل يقول "سياج على حافة نهر أنا: ليمسك بي من استطاع أن يلمسني! لكنني لست عكازا تتوكؤون عليه"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 15).

إن الإنسان المتفوق هو الذي يحكم ذاته ولا يحتاج لمن يمثله في ميادين الحياة، ويسمي نيتشه المدعين بأنهم ممثلو الشعوب (حشرات المجتمع)، إن نجاة الإنسان المتفوق تكون في ضمور صلاحيات هؤلاء وبالتالي فلا يمكن أن يحيا الإنسان المتفوق إلا إذا تخلى عن تأليه الميتافيزيقا، وعن اعتبارها الموجه الرئيسي لحياة الفرد،كما أن الإنسان المتفوق هو الذي يحطم أصنام العقل المحركة لعجلة الحياة فينجو بنفسه هاربا من الآفات السائدة لدى القطيع، فهو ليس بحاجة لمن يملي عليه القوانين لأنه لن يجد نفسه إلا في فناء أصنام العقل، حتى أن نيتشه ذاته يطالب الملأ على لسان زرادشت أن يبحثوا عن ذواتهم بعيدا عن كنفه، لأن أشد إساءة للمعلم أن يبقى التلميذ تلميذا إلى الأبد" آمركم الآن أن تضيعوني لتجدوا أنفسكم، ولن أعود إليكم إلا عندما تكونوا جحدتموني جميعكم لقد ماتت جميع الآلهة، فلن يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق"(فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938، صفحة 16)، إن مبدعي القيم يرفضون الانحصار في نطاق نظام من الأوامر والنواهي، من شأنها أن تحد من حرية الإنسان وتزج به في سجن المفاهيم الأخلاقية، ويعطينا نيتشه الخصائص التي تنسب للإنسان المتفوق صورة عن القيم الجديدة، فهو حر لأنه متحرر من قيم القطيع وإنسان خالق لأن له القدرة الكافية التي يخلق بها قيمه، وهو لا يبحث عن

مبرر لأعماله ولا يرجع إلى مصدر آخر أو فكرة مسبقة ليعرف بها الخير والشر لأنه هو الذي يحدد هاتين القيمتين لنفسه، وهو إنسان مستقل لا قانون له غير إرادته.

الخاتمة:

من خلال تحليلنا السابق يتضح لنا أن فلسفة نيتشه وجهت سهاما نقدية إلى الميتافيزيقا التي أفرغت الإنسان من محتواه، ولا شك أن رجال الدين والفلاسفة استغلوا ضعف الإنسان فافرزوا لنا كائنات متشابهة قتلوا الحياة لصالح عالم ما ورائي، لذلك نرى نيتشه يشن هجوما عنيفا وكاسحا على الكهنة والفلاسفة، فحججهم المنطقية وجدلياتهم هي مجرد تكتيكات إغرائية تخفي وراءها جملة من التحيزات والمعتقدات الزائفة، وبالتالي معهم انتهت فاعلية الإنسان الفلسفية لصالح عالم ما ورائي، فالعقلانيون بأحكامهم أقاموا جريمة قتل ومجزرة لكل ما هو دنيوي حي بأحكامهم وقتلوا حتى الحقيقة، فلا شيء حقيقي خرج حيا من بين أيديهم، ولذلك يؤكد نيتشه أن العالم الحقيقي هو العالم الظاهر، إنه هذا الذي أمامنا أمام حواسنا الذي يحتوينا إنه الأرض وهو منبع كل تفكير.

وأخير لا بد من أن يعود التفكير في النمط الثقافي العربي للأرض والحياة، لأن من لا يهتم بها لن يعمرها ولن يقدم شيئا للإنسان في الواقع، بل يبيع له الوهم في مكانٍ لا ندركه، وبالتالي علينا العيش في الأرض والإقبال على الوجود والمساهمة فيها بدل العيش كضيوف.

قائمةالمراجع:

باللغة العربية:

1. بعبد العالي،عبد السلام.(1991).*أسس الفكر الفلسفي المعاصر*.ط1،الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال.
2. بيار هيبر، سوفرين.(1994).*زرادشت نيتشه*.ط1،ترجمة:أسامة الحاج، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
3. جيل،دولوز.(1993).*نيتشه والفلسفة*.ط1،ترجمة:أسامة الحاج، بيروت،لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
4. عبد الحليم،عطية.(2001).*نيتشه وجذور ما بعد الحداثة*.ط1،بيروت، لبنان: دار الفارابي.
5. فريدريك، نيتشه.(1938).*هكذا تكلم زرادشت*.ط1،ترجمة:فارس فيليكس، الاسكندرية، مصر: مطبعة جريدة البصير.
6. فريدريك، نيتشه.(1981).*أصل الأخلاق وفصلها*.ط1،ترجمة:حسن قبيسي، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
7. فريدريك، نيتشه.(1996).*أفول الأصنام*.ط1،ترجمة:حسن بورقبة، و محمد الناجي، الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.

8. فريدريك، نيتشه.(1998).*إنسان مفرط في انسانيته*.ط1،ترجمة:محمد الناجي، الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
9. فريدريك، نيتشه.(2006).*هذا هو الانسان*.ط1،ترجمة:على مصباح، كولونيا، ألمانيا: منشورات الجمل.
10. فريدريك، نيتشه.(2012).*عدو المسيح*.ط1،ترجمة:ميخائيل ديب جورج، اللاذقية،سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
11. فريدريك، نيتشه.(2013).*الفجر*.ط1، ترجمة:محمد الناجي، الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
12. ميشال،فوكو.(1988).*جنيالوجيا المعرفة*.ط1،ترجمة:عبد السلام بنعبد العالي، و أحمد السطاتي، الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال.

باللغة الأجنبية:

1. Michel, F. (1971). *Nietzsche, la généalogie, l'histoire*. Paris, France.